

**The religious identity in tradition of Al-Jahiz
Jews and Christians as modal
(study in light of the cultural criticism)**

- Associate Professor Ahmed Hayawi Alsaad
University of Basrah
College of Arts
E-mail: dr.ahmedalsaad@yahoo.Com

- Assistant Professor Mariam Abdul nabby Abdul Majeed
University of Basrah
Basrah & Arab Gulf studies
E-mail: rakotaje@yahoo.com

Abstract:

In tradition of Al-Jahiz appeared many identities which he adopted to show their contexts as well as their manifestations in the reality and the collective imagination for the people in the third century AH. For the religious identity, it was a special discourse in his books which undertook to introduce both Muslims and non-Muslims such as Jews, Christians and the Magi.

For Jews and Christians, he described them, in distorted image by defined by real and false attributes. So their identity appeared to be deficient which appears as original value in the believers of those two religions morally and ethically through stories which mostly include humiliation and contempt as patterns culturally oriented contexts of marginalization for the others by evoking semantic components which sometimes

lack the historical precision to strengthen this framework and discoursed oriented.

Key word: Manifestations, identity Al-Jahiz

الهوية الدينية في تراث الجاحظ اليهود والنصارى أنموذجا (دراسة في ضوء النقد الثقافي) (*)

الباحثة: أ.م. مريم عبدالنبي عبدالمجيد
جامعة البصرة
مركز دراسات البصرة والخليج العربي
E-mail: rakotaje@yahoo.com

أ.د. أحمد حياوي السعد
جامعة البصرة
كلية الآداب
E-mail: dr.ahmedalsaad@yahoo.com

المُلخَص:

تبدت في تراث الجاحظ الكثير من الهويات، التي تبنى بيان ملامحها وسياقات تجليها في الواقع أو المخيال الجمعي حتى عصره في القرن الثالث الهجري، وكان للهوية الدينية خطاب خاص في كتاباته، التي التزمت التعريف بالمسلمين وغيرهم من أتباع الديانات السابقة للإسلام كاليهود والنصارى والمجوس. أما اليهود والنصارى فقد تجلى ذكركم في صورة متدنية - غالبا - تحدّها سمات حقيقية عُرفوا بها وأخرى زائفة، وتبدت هويتهم في خطاب الجاحظ مُتَّسمة بالنقص الذي تمظهر بوصفه قيمة أصيلة لأتباع هاتين الديانتين خَلْقيا وخُلُقيا، عبر مرويات مُؤطرة بالتحقير والتبخيس في الغالب توجه سياق النفي المُمنهج سُلطويا وثقافيا للآخر، باستدعاء مكونات دلالية تنقصها الدقة التاريخية أحيانا لتدعيم هذا الإطار وتوجيهه خطايا .

الكلمات المفتاحية: تمثلات ، الهوية ، الجاحظ.

* بحث مستل من أطروحة الدكتوراه الموسومة: ((تمثلات الهوية في تراث الجاحظ دراسة في ضوء النقد الثقافي))

مقدمة:

الدين إيمان عميق بوجود ذات مقدسة والخضوع لها رغبة ورهبة، فالدين الديانة اسم لجميع ما يُعبد به الله والملة والاعتقاد بالجنان والعمل بالجوارح، والله هو مالك يوم الدين، بوصفه مبتدأ القيامة والجزاء على الأعمال والحساب لها إلى وقت استقرار أهل الدارين فيهما، وقد ورد في الحديث النبوي أن الدين النصيحة، والدين: الجزاء، والطاعة، والحال، والعادة، والشأن، فنقول العرب مازال ذلك ديني وديني أي عادتي، كما أن الدين إحساس، إحساس بالاتصال بين الأنا وقوة خفية تتحكم بالكون وماينجم عن ذلك من شعور، ووجود الإنسان لا يستقيم بدون الدين والعبادة، فهو المعنى الذي خلق لأجله، حيث يقول الله U [وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ] [لذاريات، ٥٦] .

وقد صنّف الجاحظ كتباً كثيرة في موضوعات دينية متنوعة فُقدت أصولها، ولم يصل إلّا إشارات عنها في الكتب والمخطوطات منها: الأصنام، والرد على الجهمية في الإدراك، وفضيلة المعتزلة، وآي القرآن، وإحالة القدرة على الظلم، والاستطاعة وخلق الأفعال، وحكاية أصناف قول الزيدية، والدلالة على أن الإمامة فرض، وأديان العرب، وتحدث الجاحظ عن كثير من الأخلاق والقيم والشعائر الإيمانية، وأشاد بالكثير من الشخصيات والرموز الدينية، وفسر العديد من آيات القرآن، كما سخر من بعض الخرافات والأباطيل المرتبطة بالدين، إلّا أن الهوية الدينية في تراثه تبدت مشوبة بالنفي والاستهجان مع المختلف معه عقائدياً من المسلمين وغير المسلمين في كثير من الأحيان.

ولقد تعصّب الجاحظ للمعتزلة _ بوصفه إماماً من أئمتهم _ واعتبرهم أصل الحق ومنهج الدين القويم، أما الآخر فعده ضالاً، بل كافراً في الغالب، فقد رمى الجاحظ بالكفر الصريح أغلب المختلف معهم عقائدياً، وازدرى المختلف معهم دينياً، متخذاً من الجدل الكلامي وسيلة للإلغاء الفكري. وكان موقف الجاحظ من اليهود والنصارى والمجوس دينياً يرجع إلى أصول، ويستتبع تداعيات تمثلت فيه الهوية الدينية عبر سياق يشف عن تمركز على الذات النقية، بالتضاد مع الآخر الخاطيء بالضرورة.

ويمكن استجلاء هوية اليهود والنصارى في مرويات الجاحظ كأنموذج لهذا المعنى عبر الآتي:

اليهود والنصارى في تراث الجاحظ:

يسمى اليهود والنصارى والمجوس الذين يعيشون في دار الإسلام بأهل الذمة، لأنهم يحصلون على عهد الأمان من المسلمين ويكونون في ذمتهم في مقابل دفع الجزية^(١)، وقد عُرفت الجزية عند الأمم قبل الإسلام، وقد وُضعت في أثينا حوالي القرن الخامس قبل الميلاد، وفرضها الرومان، والفرس^(٢)، أما في الإسلام فقد شرعت في السنة التاسعة من الهجرة بعد فتح مكة، بوصفها بدلاً عن حماية أتباع الأديان

الهوية الدينية في تراث الجاحظ - اليهود والنصارى (دراسة في ضوء النقد الثقافي)

السابقة ولمساكنتهم المسلمين والانتفاع معهم بمرافق الدولة العامة، ومن هنا كان الدفاع عنهم مقصوداً بعهد الذمة في الإسلام، فهي ليست بدلاً عن قتلهم بسبب بقائهم على دينهم، ولا هي بدلاً عن حقن دمهم وسكنى دار الإسلام كما يدعي البعض^(٣).

وأهل الذمة على وفق هذا المبدأ أصبحوا يشاركون المسلمين فيما لهم من حقوق وواجبات مدنية مع بقائهم على ديانتهم وطقوسهم التعبدية الخاصة، وتبدت أروع صور التعايش السلمي بين المسلمين وبينهم في صدر الإسلام في كنف رسول الله ﷺ، أما بعد ذلك ف ((إذا كان يحق للمسلمين أن يفتخروا بأنهم لم يُكروهوا اليهود والنصارى، وحتى المجوس والصابئة وغيرهم من الذين كانوا يعيشون في البلاد التي فتحها المسلمون ويمثلون فيها أغلبية السكان على الدخول في الإسلام... فإنهم مارسوا بالتأكيد سياسة الميِّز، بدرجات متفاوتة حسب الأوضاع، تجاه المؤمنين بالديانات الأخرى، وكانوا ينظرون إليهم نظرة استعلاء مشوب بالاحتقار))^(٤).

أما الجاحظ فقد استهدف أهل الذمة بمرويات تبنت إنتاج نموذج يضمّ بنية قيمية تستدعي وعياً ذهنياً يهدف إلى نبذهم جميعاً بلا استثناء، عبر سياق التزم استهجانهم وإهانة كرامتهم وإنسانيتهم، متمركزاً على أصول تشكّلت من مزيج مموّه لصفات حقيقية وأخرى زائفة، فأسس لهم هوية سلبية جوهرها النقص الذي تبدى مكوناً أصيلاً من مكونات شخصية الذمي في تراثه، فالذمي، بدءاً، عند الجاحظ: ((هو أدلّ من الذليل، وأقلّ من القليل، وهو الطالب الراغب في أخذ فديته، والإنعام عليه بقبض جزيته وحقن دمه))^(٥). أما اليهود فقد تردد ذكرهم في مواضع متعددة من تراثه، وصنّف في الرد عليهم كتابه (الرد على اليهود)^(٦)، وهو من الكتب التي ضاعت مع ماضع من كتبه الكثيرة، واليهود هم أتباع موسى u وكتابهم التوراة، ولم يذكر الجاحظ فيما وصل إلينا من تراثه من أنبياء اليهود إلا موسى وهارون، حين قال: ((قد أرسل الله موسى وهارون إلى فرعون وقومه وإلى جميع القبط^(٧)، وهما أمتان: كنعاني^(٨) وقبطي^(٩))).

ويحتل موسى منزلة رفيعة في التقوى اليهودية، ولكن الأبحاث الحديثة تنفي تأليفه الأسفار والنصوص القانونية المعقدة للشريعة اليهودية، إنما وُضعت نصوص التوراة من بعد موسى بقرون، ودوّنت وتم إقرار أسفارها بمجملها في عام ٩٠ ميلادي، إذ اعتبرت أنها من كلام الله وشكّلت الكتاب المقدس المثبت لليهود الذي لن يتغير أو يضاف إليه جديد، وأخذ الكتاب المقدس مُسمى العهد القديم بين المسيحيين تمييزاً له عن العهد الجديد المتضمن للأناجيل ورسائل الرسل، إذ اعترف المسيحيون أن كلا الكتابين هما كلام الله^(١٠)، أما التلمود فهو كتاب وضعه أحبار اليهود وحاخاماتهم^(١١) متضمناً على الأحكام والحدود التي يحتاج إليها اليهود من الناحية العقائدية، ويتكون التلمود من المشنا والجَمَارا، أما المشنا فترجع نشأتها إلى موسى وفقاً للتراث اليهودي، حيث يدعي اليهود بأنه تلقى شريعتين إحداهما

الهوية الدينية في تراث الجاحظ - اليهود والنصارى (دراسة في ضوء النقد الثقافي)

الشريعة المكتوبة وهي التوراة والأخرى الشريعة الشفوية وهي المشنا التي تضم مجموعة التعاليم والتفاسير والفتاوى والوصايا التشريعية، فالمشنا هو أساس التلمود ومتمته، أما الجمارا فهي شروح وتفسير لنصوص المشنا، ومن المشنا والجمارا تكوّن التلمود اليهودي الذي أخذ منزلة مقدسة تصل إلى منزلة التوراة أو أرفع منها عند غالبية اليهود، على الرغم من عدم تقبله من بعض الفرق اليهودية^(١٢).

وقد رسم الجاحظ لليهود في كثير من المواضع صورة مشوهة عن الأصل معضدة بالتحقير والتبخيس والازدراء، نازعاً عنهم أي فضيلة تذكر، فيقول أنهم ((أقذر الأمم))^(١٣)، لتأكيد سياقاته النصية وتوجيهها نسقياً، في الوقت الذي تتضاد تعاليم وأحكام كتبهم جذرياً مع هذا المعنى، فقد تشدّد الدين اليهودي وبالغ في التطهّر من النجاسات التي لم تقتصر طبيعتها لديهم على نجاسة الإنسان بل تمتد لتشمل كل ما يحيط بالإنسان من حيوان وطعام وشراب ومكان وما إلى ذلك، ((وإذا مثلنا التشريع اليهودي بالبناء فإن الطقوس والأحكام التطهيرية التي يشتمل عليها ذلك التشريع هي من هذا البناء بمثابة الأساس والدعائم))^(١٤)، وقد خصص القسم السادس من المشنا المسمى طهاروت كاملاً لأحكام التطهّر وطقوسها، وكيف يكونون أقذر الأمم وقد تزوج الرسول ٢ منهم من دون الأمم زوجتين من زوجاته، أولاهما صفية بنت حيي بن أخطب من يهود بني النضير^(١٥)، وأنزل الله سبحانه وتعالى فيها آية من ذكره الحكيم، ((عن ابن عباس: أن صافية بنت حيي بن أخطب أتت رسول الله ٢ فقالت إن النساء يعيرنني ويقلن يايهودية بنت يهوديين، فقال رسول الله ٢: هلا قلت إن أبي هارون وإن عمي موسى وإن زوجي محمد، فأنزل الله تعالى هذه الآية))^(١٦): [يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الْأِسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ] ^(١٧)، والثانية: ((ريحانة بنت شمعون بن زيد بن عمرو بن خنافة قرظية، وكانت من ملك رسول الله ٢ فأعتقها وتزوجها))^(١٨).

وقد تبني الجاحظ القول بخصائص ردها إلى اليهود كمعطى تتجلى فيه عوامل النقص في الجانب الخفّي والخُلقي ومظاهر النتاج الإنساني كصفة توطّر هويتهم جميعاً، عبر سرد يتمركز على أنماط قيمية تضمّ النسق النافي للآخر في تراثه وتوجهه، وأما صورهم وعقولهم فيرى الجاحظ بأنها خاصة تتناسل عبر أجيالهم لتضمّ أخلاقهم مع أسلافهم لانغلاقهم على أنفسهم في المناكحة بقوله بأنهم: ((لم يضرب فيهم غيرهم، لأن مناكحهم مقصورة فيهم، ومحبوسة عليهم، فصور أولهم مؤداة إلى آخرهم، وعقول أسلافهم مردودة على أخلاقهم))^(١٩)، ويُعضد هذه الرؤية بمعنى يشفّ عن أصل حتمي يحتوي ضعف العقل والخُلُق والجمال فيهم، عبر فضاء تأويلي وتمثّل يفترض حقيقة قيام الجوهر المثالي لليهود فيقول: ((لأن الإسرائيلي لا يُزوّج إلا الإسرائيلي، وكل مناكحهم مردودة فيهم، ومقصورة عليهم، وكانت الغرائب

الهوية الدينية في تراث الجاحظ - اليهود والنصارى (دراسة في ضوء النقد الثقافي)

لاتشويهم، وفحولة الأجناس لا تُضرب ولا تُضرب فيهم، لم ينجبوا في عقل ولا أسر^(٢٠) ولا ملح، وإنك لتعرف ذلك في الخيل والإبل والحمير والحمام^(٢١).

وقد كان الزواج المختلط، أي زواج اليهودي من غير اليهودية أو العكس، من الزيجات المنهي عنها في التشريع اليهودي^(٢٢)، ولكن برغم تبني اليهود هذا التشريع معتبرين أن الزواج المختلط يضعف الجوهر المثالي لليهودية بوصفهم شعب الله المختار، لكن الواقع التاريخي اليقيني لليهود يُكذب هذا المعنى تماماً، فزواج اليهود من باقي الأمم والعكس حقيقة لاشك فيها على طول العصور، وعليها يجمع جمهرة المؤرخين والانتروبولوجيين ابتداءً من كين إلى ريلي إلى كرن ٠٠٠ إلخ^(٢٣).

وأما حديث اليهود فمُجَرَّد، حسب الجاحظ، من أي كلام شريف أو معنى مُستحسن أو حكم أو حكمة أو حذق في صناعة، يقول: ((كان الرجل من العرب يقف المواقف، ويُسير عدة أمثال، كل واحد منها ركن يُبنى عليه، وأصل يتفرع منه، وهل تسمع لهم بكلام شريف، أو معنى يستحسنه أهل التجربة، وأصحاب التدبير والسياسة، أو حكم، أو حكمة، أو حذق في صناعة، مع ترادف الملُك فيهم، وتظاهر الرسالة في رجالهم^(٢٤)))، وهذه المداخل التي قرأ الجاحظ بها اليهود تختلف عن الأصل وتغايره، وتبرز رغبة عالية باستلاب أية كفاءة أو تقدير أو حظوة ضمنية تنتمي إلى النموذج الذي يكمن كعنصر أصيل في الذات اليهودية وسماتها، وقد أثبتت الدراسات العلمية تهافت أقوال الجاحظ حول اليهود بهذا الاتجاه يقيناً، فقد عني اليهود وتميزوا وأغنوا الفكر العربي ولاسيما في مجال الشعر^(٢٥)، كما برعوا في الكثير من الحِرَف^(٢٦) ومنها الحِرَف التي تستلزم فناً في الصناعة كالصياغة التي لازمتهم أكثر من غيرهم من الأمم منذ عصر ما قبل الإسلام^(٢٧)، كما ((عني بنو إسرائيل بالتربية عناية كبرى، وكانت للتربية لديهم قوة خاصة، هي التي استطاعت أن تبقى عاداتهم واعتقاداتهم حية طوال العصور، رغم تشردهم في البلدان^(٢٨)))، ومن مناقضات الجاحظ أنه يتضاد مع ما قرره أنفاً، وذلك في فقرة كتاب الزهد من كتابه (البيان والتبيين) باختياره لبعض الأبيات الشعرية لشاعر اليهود السموأل الذي كان يُضرب المثل به في الوفاء في منظومة التراث العربي^(٢٩)، توصف فيها اليهود بالكرم والتسامي للعلی والجار العزيز والتناصر والشجاعه^(٣٠)، وفي باب من القول في المعاني الظاهرة باللفظ الموجز ينتقي الجاحظ أبياتاً للربيع بن أبي الحُقَيْق من بني النضير من اليهود تبدي فيها قضاء اليهود بالحكم العادل الفاصل وتقريقتهم العادل بين الباطل والحق^(٣١).

وقد أثبت الواقع التاريخي أن اليهود قد بلغوا في الشعر وفي الفن القصصي منزلة رفيعة، وكان شعرهم ونثرهم وآدابهم في صياغة الأمثال تنجبه إلى موضوع واحد هو الدين وثماره الأخلاقية، في الوقت الذي لم يُقدِّموا من نتاج تفكيرهم للعلوم كما فعل البابليون والمصريون والإغريق، ولم يُسهموا في العلوم

الهوية الدينية في تراث الجاحظ - اليهود والنصارى (دراسة في ضوء النقد الثقافي)

السياسية واللاهوتية والفلسفة^(٣٢)، يقول الجاحظ: ((إن اليهود ترى أن النظر في الفلسفة كفر، والكلام في الدين بدعة، وإنه مجلبة لكل شبهة، وإنه لا علم إلا ما كان في التوراة وكتب الأنبياء، وأن الإيمان بالطب، وتصديق المنجمين من أسباب الزندقة والخروج إلى الدهرية والخلاف على الأسلاف وأهل القدوة، حتى أنهم ليُبهرجون المشهور بذلك، ويُحرمون كلام من سلك سبيل ذلك))^(٣٣).

ويعدّ الجاحظ اليهود بعمومهم أغبياء غاوين قليلي نظر مقلدين^(٣٤)، أما القول بقلة النظر والعقل فقد أخذ عبر سرد الجاحظ مدخلاً واهياً تعارض به مع نصّ القرآن، حين عدّه صفة متمركزة في العقل اليهودي عبر الإحالة إلى إرثهم الرمزي في العلاقة مع سياقات الوعيد، فينفي وعيد موسى لهم بالعذاب المؤخر الذي يُمثل قانوناً إلهياً لكل الأديان السماوية لإثبات هذا المدخل وإعلائه، يقول: ((وكذلك وعد محمد u بنار الأبد، كوعيد موسى بني إسرائيل بإلقاء الهلاس^(٣٥) على زروعهم، والهّم على أفئدتهم، وتسليط الموتان^(٣٦) على ماشيتهم، وبإخراجهم من ديارهم، وأن يظفر بهم عدوهم، فكان تعجيل العذاب الأدنى في استدعائهم واستمالتهم وردعهم عما يريد بهم، وتعديل طبائعهم، كتأخير العذاب الشديد على غيرهم، لأن الشديد المؤخر لا يزر إلا أصحاب النظر في العواقب، وأصحاب العقول التي تذهب في المذاهب))^(٣٧).

وقد أخبر القرآن الكريم بثبوت الوعد والوعيد المؤخر لبني إسرائيل عبر موسى وبزمانه في مواطن متعددة^(٣٨)، كما اشتمل العهد القديم لليهود على القول بالجزاء والحساب في أكثر من سفر من أسفاره^(٣٩)، وتضمن التلمود أقوال عدّة تؤكد هذا المعنى وتدعمه^(٤٠).

وأشار الجاحظ إلى أهم شعيرتين في الدين اليهودي باقتضاب شديد هما إقامة السبت والختان، فاليهودي عند الجاحظ من أهل النقص ونسكه التشدد في إقامة السبت، يقول: ((وجدنا لجميع أهل النقص، ولأهل كل صنف منهم نسكاً يعتمدون عليه في الجمال، ويحتسبون به في الطاعة وطلب المثوبة، ويفزعون إليه، على قدر فساد الطباع، وضعف الأصل واضطراب الفرع، مع خُبث المنشأ، وقلة التنبّت والتوقّف، ومع كثرة التقلب والإقدام مع أول خاطر... ونسك اليهودي التشدد في إقامة السبت))^(٤١)، ولم يبين الجاحظ طبيعة ذلك التشدد وحدود إقامته في السبت^(٤٢)، الذي يُعد يوماً مقدساً في الحياة اليهودية، وعهداً خاصاً باليهود وعلامة بينهم وبين الرب، كما ورد في سفر الخروج الذي جاء فيه: ((فيحفظ بنو إسرائيل السبت ليصنعوا السبت في أجيالهم عهداً أبدياً، هو بيني وبين بني إسرائيل علامة إلى الأبد))^(٤٣).

كما أشار الجاحظ إلى ثاني أهم شعيرة في الدين اليهودي وهي الختان نقلاً عن مزاعم لأطباء نصارى يدّعي أنهم أعداء اليهود، بقوله: ((وزعم ناس من أطباء النصارى وهم أعداء اليهود، أن اليهود يختنون

الهوية الدينية في تراث الجاحظ - اليهود والنصارى (دراسة في ضوء النقد الثقافي)

أولادهم في اليوم الثامن))^(٤٤)، ومن المُستغرب أن الجاحظ _ بعلمه الموسوعي _ يجهل هذه الشعيرة التي لها مكانة كبرى في اليهودية ويوردها زعماً عن آخرين، فالختان عهد وعلامة انتماء للشعب اليهودي، وردت الإشارة بذلك في سفر التكوين بالقول: ((قال الله لإبراهيم من بعدك في أجيالهم، هذا هو عهدي الذي تحفظونه بيني وبينكم، وبين نسلك من بعدك: يُختن منكم كل ذكر، فتختنون في لحم غرلتكم، فيكون للأمة عهد بيني وبينكم، ابن ثمانية أيام يُختن^(٤٥) منكم كل ذكر في أجيالكم، وليد البيت، والمبتاع بفضة من كل ابن غريب ليس من نسلك، يُختن ختاناً وليد بيتك والمبتاع بفضتك، فيكون عهدي في لحمكم أبدياً))^(٤٦).

وقد تبنى الجاحظ حديثاً نبوياً يكشف عن رؤية خاصة للبنية الشعورية لليهود تجاه المسلمين، وهو قوله: ((عن يحيى بن عبيد الله، عن أبيه، عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: ((ما خلا يهودي بمسلم إلا همَّ بقتله))، ويقال: حدّث نفسه بقتله))^(٤٨)، وقد ثبت بأن هذا القول هو رواية لما لا أصل له في منظومة الحديث^(٤٧).

كما تبدى تمثّل اليهود في تراث الجاحظ بالفهد والفأرة والأرضة والضّب، وهذا التمثّل يجهر برؤيا للآخر متوصفاً بمغايرة تامة تخرجه نسقياً من المنظومة الإنسانية بسلب الذات أو محوها إلى خارج حدودها، مستجلباً رؤية المخيال الجمعي للعرب لهذه الأمة دون النصارى حيث يقول: ((الصبيان يصيحون بالفهد إذا رأوه: يا يهودي... والعامة تزعم أن الفأرة كانت يهودية سخّارة، والأرضة يهودية أيضاً عندهم، ولذلك يلطخون الأجداع بشحم الجرّور^(٤٩)، والضّب يهودي، ولذلك قال بعض القصاص لرجل أكل ضباً: اعلم أنك أكلت شيخاً من بني إسرائيل، ولأراهم يضيفون إلى النصرانية شيئاً من السباع والحشرات))^(٥٠)، في الوقت الذي تبدى الشيخ اليهودي في منظومة تفسير الأحلام عند العرب عدواً يريد هلاك عدوه، بينما تبدى الشيخ النصراني عدواً يؤمن شرّه، والنصارى تدلّ على الخنازير لمن رآهم^(٥١)، أما كتب الأمثال العربية ((فقد تطرّقت إلى حال النصارى في اقتضاب شديد عبر أربعة أمثال، ولكنها أغفلت كلياً التعرّيج على اليهودية وأهلها))^(٥٢).

أما النصارى فهم أتباع عيسى u وكتابهم الإنجيل، ((وتُسمى النصرانية نسبة إلى بلدة الناصرة بفلسطين موطن عيسى))^(٥٣)، ويعتقد النصارى أن عيسى أسس اتفاقاً يُعرف بالعهد الجديد بين الله والإنسان يحلّ محلّ الاتفاق القديم الذي كان بين الله تعالى وموسى، وبموجب الاتفاق الجديد يموت عيسى بدلاً عن الخطاة ويزيل بدمه خطايا البشر^(٥٤)، وكان للقرن المسيحي الأول كتب كثيرة ألفت عنه، وأهم المصادر التي تمّت بصلّة إلى تاريخه هي مدونات الأناجيل ورسائل الرسل في العهد الجديد، وقد بحثت هذه المصادر بدقة واستقصاء عقول باحثين وعلماء توصلوا إلى قرار مفاده أن الديانة المسيحية المبكرة

الهوية الدينية في تراث الجاحظ - اليهود والنصارى (دراسة في ضوء النقد الثقافي)

عن عيسى في العهد الجديد قد عدلت، ومن المعروف أن عيسى لم يُدَوّن تعاليمه وإنما اعتمد على تلاميذه في القيام بالتبشير بما علمه^(٥٥)، وقد شكّك الجاحظ في أصل عقيدة النصارى الناتج عبر هذا الاتجاه، مفترضاً خواء هذا الدين كقيمة مُتَقَبَّلة من نسق لايؤمن عليه خصائص الضلال باستلهامه من معطيات مترشحة من إشكالية تضم عمقها التاريخي وافرزاته التالية، فيقول أن النصارى ((إنما قبلوا دينهم عن أربعة أنفس: إثنان منهم من الحواريين بزعمهم: يوحنا ومثى، وإثنان من المستجيبة وهما: مارثس ولوقش، وهؤلاء الأربعة لايؤمن عليهم الغلط ولا النسيان، ولا تعمّد الكذب، ولا التواطؤ على الأمور، والاصطلاح على اقتسام الرئاسة، وتسليم كل واحد منهم لصاحبه حصته التي شرطها له))^(٥٦).

أما فرق النصارى فيمكن تقسيمها على قسمين رئيسين في مسألة التوحيد والاعتقاد بعيسى، قسم منها فرق حافظت على عقيدة التوحيد الأصلية لله ا وأن عيسى هو عبده ورسوله، ومن أولئك فرقة أبيون وفرقة بولس الشمشاطي وفرقة أريوس وفرقة الموحدين في عصرنا الحاضر، والقسم الثاني - وهم الأغلبية الساحقة - فرق جنحت عن هذه العقيدة الأصلية واعتقدت أن في عيسى طبيعة إلهية^(٥٧)، وبرغم استفاضة الجاحظ في الحديث عن النصارى فإنه لم يذكر شيئاً عن النصارى الموحدين مطلقاً.

وقد التقى النصارى مع اليهود بوجوه كثيرة في العقائد وفي السلوك^(٥٨)، أما الجاحظ فقد قرنهم مع اليهود بالقول بالتشبيه للذات الإلهية، يقول: ((وسنقول في الكسر عليهم إذا صرنا إلى القول في التشبيه، وهو قول معظمهم، والذي عليه جماعتهم، إلا من خالفهم من متكلميهم ومتفلسفيهم، فإنهم يقولون بالتشبيه والتجسيم فراراً من كثرة الشناعة، وعجزاً عن الجواب، وكفى بالتشبيه قبحاً، وهو قول يعم اليهود^(٥٩)))^(٦٠)، وباعتقادهم بالمسخ يقول: ((أهل الكتابين^(٦١) ينكرون أن يكون الله تعالى مسخ قروداً وخنزير، وإنما مسخ امرأة لوط حجراً، كذلك يقولون))^(٦٢)، وتعظيمهم للنار يقول: ((ويزعم أهل الكتاب أن الله تعالى أوصاهم بها، وقال: (لاتطفئوا النيران من بيوتى) فلذلك لاتجد الكنائس والبيع، وبيوت العبادات، إلا وهي لاتخلو من نار أبداً، ليلاً ولانهاراً، حتى أتخذت للنيران البيوت والسدنة^(٦٣)، ووقفوا عليها الغلات الكثيرة))^(٦٤)، كما قرنهم في اتخاذ الحدود التي أحدثوها في دار الإسلام بقوله: ((وليس تحريم الكلام من الحدود القائمة في كتبهم، ولكن الجائليق^(٦٥) ورأس الجالوت^(٦٦) لايمكنهما في دار الإسلام حبس ولاضرب، فليس عندهما إلا أن يُغرما المال ويُحرما الكلام، على أن الجائليق كثيراً مايتعافل عن الرجل العظيم القدر، الذي له من السلطان ناحية))^(٦٧).

واستفاض الجاحظ في بيان الاختلافات التي يتسمون بها كقيمة تستجلي هويتهم وبخاصة العقائدية والنفسية، ولم تكن العلاقة بين اليهود والنصارى جيدة منذ البداية، فمنذ القرن الأول الميلادي كان موقف اليهودية الذي يُحدد رسمياً من الحاخامات الذين رفضوا الادعاء بأن عيسى هو المسيح المُخلص^(٦٨)، أما

الهوية الدينية في تراث الجاحظ - اليهود والنصارى (دراسة في ضوء النقد الثقافي)

رأي النصارى باعتقادات اليهود فقد بيّنه الجاحظ بقوله بأنهم زعموا ((أن كل من اعتقد خلاف النصرانية من المجوس والصابئين والزنادقة فهو معذور، مالم يعتمد الباطل ويعاند الحق، فإذا صاروا إلى اليهود قضاوا عليهم بالمعاندة وأخرجوهم من طريق الغلط والشبهة))^(٦٩).

وقد بين الجاحظ منازعتهم في المسيح وغلّوهم المتناقض في تقدير قيمته تبخيساً وإعلاءً فقال: ((إن اليهود نازعت النصارى في المسيح، فلجّ بهما القول حتى قالت اليهود إنه ابن يوسف النجار، وإنه لغير رُشده، وإنه صاحب نيرنج^(٧٠) وخذع ومخاريق، وناصب شرك، وصياد سمك، وصاحب شصّ وشبك، فما يبلغ من عقل صياد وربيب نجار؟ وزعمت النصارى إنه رب العالمين، وخالق السماوات والأرضين، وإله الأولين والآخرين، ولو وجدت اليهود أسوأ من هذا القول لقالته فيه، ولو وجدت النصارى أرفع من ذلك القول لقالته فيه))^(٧١)، وقد تضادت آراء اليهود والنصارى في عيسى وتناقضت تناقضاً كبيراً، فاتهمه اليهود واتهموا والدته باتهامات مشينة لأقصى الحدود، في حين اعتقد أغلب النصارى بألوهيته^(٧٢)، يقول الجاحظ: ((ولو جهدت بكل جهدك، وجمعت كل عقلك أن تفهم قولهم في المسيح، لما قدرت عليه، حتى تعرف به حدّ النصرانية، وخاصة قولهم في الإلهية وكيف تقدر على ذلك وأنت لو خلوت ونصراني نسطوري فسألته عن قولهم في المسيح لقال قولاً، ثم إن خلوت بأخيه لأمه وأبيه وهو نسطوري مثله فسألته عن قولهم في المسيح لأتاك بخلاف أخيه وصنوه، وكذلك جميع الملكانية واليعقوبية^(٧٣)، ولذلك صرنا لانقل حقيقة النصرانية، كما نعرف جميع الأديان))^(٧٤).

وتبدّى النصارى أقرب إلى عوام العرب من بين اليهود والمجوس بقول الجاحظ: ((صارى النصارى أحبّ إلى العوام من المجوس وأسلم صدوراً عندهم من اليهود، وأقرب مودة، وأقلّ غائلة، وأصغر كفرًا، وأهون عذاباً))^(٧٥)، ويردّ الجاحظ هذه الرؤية لأسباب تنتمي إلى مكونات علائقهم بالعرب أو سماتهم الفكرية والمعنوية أو رؤيا المخيال الجمعي، التي أخذها مفتتحاً للتدبير بالنصارى وتعطيل هذه القيمة لصالح اليهود في كتابه (الرد على النصارى)^(٧٦)، الذي يقول فيه: ((والكلام إذا حُرِّك تشعّب، وإذا ثبت أصله كثرت فنونه، واتسعت طرقه، ولولا ملالة القارئ، ومدارة المستمع لكان بسط القول في جميع ما يعرض أتمّ للدليل وأجمع للكتاب، ولكننا إنما ابتدأنا الكتاب لنقتصر به على كسر النصرانية فقط))^(٧٧).

أما أهم أسباب الجاحظ لقرب النصارى إلى العرب فتتلخص بقوله: بأن اليهود كانوا جيران المسلمين وعداوة الجيران تشبه عداوة الأقارب بشدة التمكن والحدق، وكانت النصارى لبعد ديارهم لايتكفون طعن المسلمين ولايثيرون الكيد لهم ولايجمعون على حرب، فكان هذا أول سبب غلظ القلوب على اليهود وليّتها على النصارى، ثم ماكان من أمر هجرة المسلمين إلى الحبشة ولواذهم بها ماحبهم إلى عامة المسلمين، ومن شأن الناس محبة من يصطنع إليهم خيراً، وأمر آخر وهو من أقوى أمورهم وهو تأويل آية يقول

الهوية الدينية في تراث الجاحظ - اليهود والنصارى (دراسة في ضوء النقد الثقافي)

الجاحظ أن فيها غلظت العامة ونازعت الخاصة، وحفظتها النصارى واستمالت بها القلوب كحجة، وهي قوله تعالى [لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى] (٧٨)، ويرى الجاحظ أن الله تعالى لم يقصد بهذه الآية هؤلاء النصارى، وإنما قصد بحيرا الراهب والرهبان الذين خدمهم سلمان الفارسي، ومن الأسباب الأخرى أنه لما جاء الإسلام كان ملوك العرب رجلين: غساني ولخمي وهما نصرانيان، وكانت العرب تدين لهما وتؤدي الأتاوة إليهما كتعظيم راجع إلى تعظيم دينهما، وكان ذلك أيضا للنصارى دون اليهود، ومن الأسباب أن العرب كانت لها تجارة إلى الشام وينفذ رجالها إلى ملوك الروم، وتهاجر إلى الحبشة وتأتي إلى النجاشي وافدة فيكرمهم ويعرف لهم الأقدار، وذلك في رحلة الشتاء والصيف المعروفة، وقيصر والنجاشي نصرانيان، فكان ذلك للنصارى أيضا دون اليهود، كما أن النصرانية كانت منتشرة بين العرب، وجاء الإسلام ولم تكن اليهودية بغالبة على قبيلة من قبائل العرب، فعطف قلوب العرب على النصارى ماكان فيهم من الملك والقربة وأن فيهم من العرب الكثير، وأن بنات الروم ولذن ملوك الإسلام، وأن من النصارى متكلمين وأطباء ومنجمين فتوصفوا عند العرب كعقلاء وفلاسفة حكماء ولم يجدوا ذلك في اليهود، ومما عظمهم في القلوب أن منهم كتأب السلاطين وفراشي الملوك وأطباء الأشراف والعطارين والصارفة، بينما وجدوا اليهود صباغين أو دباغين أو حجامين أو قصابين أو شعابين (٧٩)، فلما رأَت العوام اليهود والنصارى توهمت أن دين اليهود مقارنة بالأديان كصناعتهم مقارنة بالصناعات وأن كفرهم أقدر الكفر، ويقول الجاحظ ونحن لم نخالف العوام بكثرة أموال النصارى وقيام ملكهم وأن ثيابهم أنظف وصناعتهم أحسن، وإنما خالفنا في التفريق مابين الكفرين والفرقتين بشدة العناد واللجاجة والإرصاد لأهل الإسلام، مع لؤم الأصول وخبث الأعراق (٨٠)، وذلك تعضيدا وتعزيزا لموقف السلطة الحاكمة وتدعيما لقرارات المتوكل بالتكليف بأهل الذمة (٨١)، كشفت عن ذلك رسالة من الفتح بن خاقان وزير المتوكل أرسلها للجاحظ لحنه على إتمام الكتاب والتعجيل به، ومما جاء فيها: ((إن أمير المؤمنين يجذب بك، ويهش عند ذكرك، ولولا عظمتك في نفسه لعلمك ومعرفتك، لحال بينك وبين بُعدك عن مجلسه، ولغصبك رأيتك وتدبيرك فيما أنت مشغول به ومتوفر عليه، وقد كان ألقى إلي من هذا عنوانه، فزدتك في نفسه زيادة كف بها عن تجشيمك، فاعرف لي هذه الحال، واعتقد هذه المنة على كتاب الرد على النصارى، وافرح منه وعجل به إلي، وكُن من جدا به على نفسه تنال مشاهرتك، وقد استنطقته لما مضى، واستلقت لك لسنة مستقبلة، وهذا مما لم تحتكم به في نفسك)) (٨٢)، ولم يكن يكفي المتوكل حث العلماء على الحط من النصارى بل لجأ إلى محاربة ميل العامة إليهم وتعاطفهم معهم، عبر قلم الجاحظ الموجّه الخفي لسياسته، فرسالة الرد على النصارى

الهوية الدينية في تراث الجاحظ - اليهود والنصارى (دراسة في ضوء النقد الثقافي)

تهدف إلى تغيير صورة النصارى في أذهان العامة، وهي تتميز عن سائر الكتب السجالية التي وضعها المسلمون بأنها تستهدف النصارى أنفسهم بطريقة أصيلة^(٨٣).

ولقد بين الجاحظ بعض سمات النصارى بوصفها قيماً تدعم سياق النفي الممنهج عبر سرد يفتقد الدقة التاريخية أحياناً، ويشوبه التضليل المتعمد أحياناً للنيل منهم جميعاً، مستنداً على مكونات دلالية ينتهك فيها الجوهر الشخصي فيهم لكسره عبر نموذج يتمثل مناحي القبح المفترضة كنمط متمركز يُؤطر هوية النصارى، ليس في هذا الكتاب فحسب وإنما في مواضع أخرى من مصنفاته، ف ((الجاحظ لم يسلم في تطبيق استراتيجيته الحوارية العقلية من انحرافات ومغالطات تمثلت في هجومه على النصارى بصفتهم جماعة أو فئة دينية وتحقيرهم، بدل حصر حجاجه في خطابهم وآرائهم التي يتبنونها أو يدعمونها، وهو إجراء إن كان يخدم المحاجج في الانتصار لرأيه على حساب الرأي المخالف، إلا أنه انتصار يتم بالعنف في التعامل مع الهوية الدينية المغايرة والسعي إلى كسرها بكسر أصحابها))^(٨٤).

وقد ناقش الجاحظ بعض الآراء التي تتضاد مع حقائق أقرها القرآن الكريم عبر مقولات نسبها للنصارى وقد قالوا بها، ومقولات أخبر عنها وهي ليست عندهم إذ قال: ((ليعلم من قرأ هذا الكتاب، وتدبر هذا الجواب، إننا لم نغتم عجزهم، ولم ننتهز غرثهم، وإن الإدلال بالحجة والثقة بالفالج والنصرة، هو الذي دعانا إلى أن نخبر عنهم بما ليس عندهم، وألا نقول في مسألتهم بمعنى لم ينتبه له مُنتبه، أو يُشر إليه مشير، وألا يوردوا فيما يستقبلون، على ضعفائنا ومن قصر نظره منا، شيئاً إلا والجواب قد سلف فيه وألسنتهم قد مُذلت به))^(٨٥)، وفي هذا تجاوز في الحجة واستباق مرفوض، كأنه إنما أراد تنبيههم على ما لا يعرفون من مواطن تأخذ في ظاهرها إشكالية بتعارض المرويات التاريخية مع ما أخبر به القرآن الذي دعم الجاحظ بنصه تلك الاحتجاجات المفترضة، مع مافيه من خطر التشكيك للضعفة من المسلمين ولغيرهم حول مصداقية نص القرآن، إذ لم يستطع الجاحظ أن يقدم ردوداً مقنعة كلياً على احتجاجاته المفترضة تلك، وهذا ما انتبه له ابن قتيبة معاصره^(٨٦).

ومن سمات النصارى التي أوردها الجاحظ كثرة العدد، فيرى الجاحظ أن الأمة قد استعظمت مصيبتها بكثرة أعدادهم التي غلبوا بها الأمم على الرغم مما في دينهم من حدود تحدّ النسل، يقول: ((والعجب أن كل جاثليق لا ينكح، ولا يطلب الولد، وكذلك كل مطرّان^(٨٧)، وكل أسقف^(٨٨)، وكذلك كل أصحاب الصوامع من اليعقوبية، والمقيمين في الديارات والبيوت من النسطورية، وكل راهب في الأرض وراهبة، مع كثرة الرهبان والرواهب^(٨٩)، ومع تشبه أكثر القسيسين^(٩٠) بهم في ذلك، ومع مافيه من كثرة الغزاة، وما يكون فيهم مما يكون في الناس، من المرأة العاقر والرجل العقيم، على أن من تزوج منهم امرأة لم يقدر على الاستبدال بها، ولا على أن يتزوج أخرى معها، ولا على التسري عليها^(٩١)، وهم مع هذا

الهوية الدينية في تراث الجاحظ - اليهود والنصارى (دراسة في ضوء النقد الثقافي)

قد طبقوا الأرض، وملئوا الآفاق، وغلّبوا الأمم بالعدد وبكثرة الولد، وهذا مما زاد في مصائبنا، وعظمت به محتنتنا))^(٩٢).

ولقد أمعن الجاحظ في التنديد بالنصارى وتسفيههم وتجريدهم من أية حكمة أو بيان أو بُعد رويّة كعلامة تنطوي على جوهر النقص المضمّر فيهم كجماعة دينية، على الرغم مما عُرف عنهم من التفوق والبراعة في أمور عدّة كالطب والكتابة والترجمة والشعر^(٩٣) - على سبيل المثال لالحصر - فيقول: ((ولو علمت العوام أن النصارى والروم ليست لهم حكمة ولا بيان، ولا بُد رويّة، إلا حكمة الكفّ من الخرط والنجر والتصوير، وحياسة البرّيون^(٩٤) لأخرجتهم من الأدباء، ولمحتهم من ديوان الفلاسفة والحكماء))^(٩٥).

أما رحمتهم فقليلة وأما قلوبهم ففاسدة، يقول: ((ومما يدلّ على قلة رحمتهم وفساد قلوبهم أنهم أصحاب الخصاء من بين جميع الأمم، والخصاء أشدّ المثلّة، وأعظم ما ركّب به إنسان، ثم يفعلون ذلك بأطفال لا ذنب لهم، ولادفع عندهم، ولانعرف قوما يُعرفون بخصاء الناس حيث ما كانوا إلا ببلاد الروم والحبشة، وهم في غيرها قليل، وأقل من القليل، على أنهم لم يتعلموا إلا منهم، ولا كان السبب في ذلك غيرهم، ثم خصوا أبناءهم وأسلموهم في بيعهم))^(٩٦)، ويشهد التاريخ أنه كانت عادة النصارى في القرون الوسطى أن يخصوا أولادهم ((بطريقة الوجع أو السلّ، فيتم الخصي دون التعرّض للقضييب، وكانوا يقفونهم على خدمة بيوت العبادة ليكونوا رهباناً، فقد كرهوا لرهبانهم إحبال نسائهم لأن الموجور أو المسلول يقضي إريه دون الإحبال))^(٩٧)، يقول الجاحظ: ((ومن أهل الملل من يخصي ابنه ويقفه على بيت العبادة، ويجعله سادناً، كصنيع الروم، إلا أنهم لأحدثون في القضييب حدثاً، ولا يتعرضون إلا للأنثيين، كأنهم كرهوا لأولادهم إحبال نسائهم ورواهبهم فقط، فأما قضاء الوطر وبلوغ اللذة فقد زعموا أنهم يبلغون في ذلك مبلغاً لا يبلغه الفحل))^(٩٨).

ويخص الجاحظ النصارى بالرياء العجيب والزهد الظاهر يقول: ((وللنصارى خاصة رياء عجيب، وظاهر زهد))^(٩٩)، وأنهم بعد اتخاذهم النصرانية ديانة صاروا جنباء مغلوبين بعد أن كانوا هم الغالبين يقول: ((إنا قد علمنا أن الروم قبل التدين بالنصرانية كانت تنتصف من ملوك فارس، وكانت الحروب بينهم سجلاً، فلما صارت لاتدين بالقتل والقتال والقود والقصاص، اعتراهم مثل ما يعتري الجبناء حتى صاروا يتكفون القتال تكفاً، ولما خامرت طبائعهم تلك الديانة، وسرث في لحومهم ودمائهم فصارت تلك الديانة تعترض عليهم، خرجوا من حدود الغالبية إلى أن صاروا مغلوبين))^(١٠٠).

كما يخصّهم باللؤم الباطن والقدر والسماجة فيقول: ((والنصراني وإن كان أنظف ثوباً، وأحسن صناعة، فإن باطنه أأم وأقذر وأسمح، لأنه ألقف، ولا يغتسل من الجنابة، ويأكل لحم الخنزير، وامرأته

الهوية الدينية في تراث الجاحظ - اليهود والنصارى (أموذجا دراسة في ضوء النقد الثقافي)

جُنُبٌ لا تطهر من الحيض، ولا من النفاس، ويغشاها في الطمث، وهي مع ذلك غير مختونة^(١٠١)))^(١٠٢)، نعم لقد خصَّ الجاحظ نساء النصارى بالقذارة الشخصية كسمة أصيلة تستدعي اللخن والعفن في أرحامهن عند قوله: ((ويزعمون أن الكثرة في الأولاد إنما تكون من العفن واللخن، وعلى قدر كثرة المائية وقتلتها، فذهبوا إلى أن أرحام الروميات والنصرانيات أكثر لخنًا ورطوبة، لأن غسل الفروج بالماء البارد مراراً في اليوم، مما يُطَيِّب الأرحام، وينفي اللخن والعفن، ويزعمون أن المرأة إذا كان فرجها نظيفاً، وكانت معطرة قوية المنة قلَّ حملها))^(١٠٣).

ولم يستثن الجاحظ علماء النصارى وعقلاءهم وسدنتهم ورهبانهم من استهجانه، محيلاً إلى معطيات تستجلي صفات ينسبها إليهم يُجردهم فيها من الفضائل العليا، عبر سياق قائم على قمع ثقافي يستهدف تراتبية مقصودة في نفي النصارى لمنح ازدرائهم حجة وشاهد لترسيخ نسق النبذ الممنهج ومساندته والتسليم به، أما علماءهم وعقلاؤهم فيقول بأنهم ((ليسوا بمُتَحاشين من الكذب الصرف، والجرأة على البهتان البحث، وقد تعودوا المكابرة حتى دربوا بها الدرب الذي لا يُفطن له، إلا ذو الفراسة الثابتة، والمعرفة الثاقبة))^(١٠٤)، وأما سدنتهم فمازالت تحتال للناس جهة النيران يقول: ((ومازالت السدنة تحتال للناس جهة النيران بأنواع الحيل، كاحتيال رهبان كنيسة القمامة^(١٠٥) ببيت المقدس بمصاييحها، وأن زيت قناديلها يستوقد لهم من غير نار، في بعض ليالي أعيادهم))^(١٠٦)، وفي رهبانهم يقول الجاحظ: ((إذا كان النصراني فسلاً نذلاً مُبغضاً للعمل، ترهبَّ ولبس الصوف، لأنه واثق أنه متى لبس وتزيًا بذلك الزي وتحلَّى بذلك اللباس، وأظهر تلك السیما، أنه قد وجب على أهل اليسر والثروة منهم أن يعولوه، ويكفوه، ثم لا يرضى بأن ربح الكفاية باطلاً حتى استطال بالمرتبة))^(١٠٧).

ودفعه التحيز ضد النصارى إلى تعضيد استهجانهم باستهجان دينهم، نافيةً اشتماله على مزاجر أخروية وحدود دنيوية تستحثهم على مجانية الفساد وإيثار الصلاح، في سياق يكشف عن مظهر يناقض الحقيقة، لتدعيم منهج الاستلاب القيمي لكل ما يمت للنصارى بصلة فيقول: ((وهم مع شرارة طبائعهم، وغلبة شهواتهم ليس في دينهم مزاجر كئار الأبد في الآخرة، وكالحدود والقوَد والقصاص في الدنيا^(١٠٨)، فكيف يجانب ما يفسده، ويؤثر ما يصلحه من كانت حاله كذلك))^(١٠٩)، في حين تبني النصارى وبشدة الاعتقاد بالنار الأبدية والعذاب الأبدی^(١١٠)، بل أثبتت الدراسات المحكمة حول اعتقادات النصارى الجوهرية ((أن جهنم كما هي عند المسلمين مكان للعذاب كذلك يعتقد النصارى))^(١١١).

ويعضد الجاحظ استهجانهم واستهجان دينهم عندما يقرنهم ويقرنه بالزندقة والزندقة، يقول: ((ودينهم _ يرحمك الله _ يضاهي الزندقة، ويناسب في بعض وجوه قول الدهرية، وهم من أسباب كل حيرة وشبهة، والدليل على ذلك أنا لم نر أهل ملَّة قط أكثر زندقة من النصارى، ولا أكثر متحيراً أو مترنحاً

الهوية الدينية في تراث الجاحظ - اليهود والنصارى (دراسة في ضوء النقد الثقافي)

منهم وكذلك شأن كل من نظر في الأمور الغامضة بالعقول الضعيفة، ألا ترى أن أكثر من قُتل في الزندقة ممن كان ينتحل الإسلام ويظهره، هم الذين آباؤهم وأمهاتهم نصارى، على أنك لو عددت اليوم أهل التهمة لم تجد أكثرهم إلا كذلك))^(١١٢).

أما لفظ زنديق فقد أُطلق على معانٍ مختلفة أولها وأهمها الإيمان بمانى^(١١٣)، وهذا ما عناه الجاحظ تماماً، وقد ظهر ماني في فارس - وقيل في العراق في فترة احتلال الساسانيين للعراق - زمان الملك سابور بن أردشير من بعد عصر عيسى u الذي أقر ماني بنبوّته^(١١٤)، وكانت المانوية ديانة ذات نزعة تليفقية أخذتها من كل الثقافات التي عاصرتها كالمسيحية والأغريقية ماعدا الزرادشتية التي كان ماني يناصرها العداء، ولكن المسيحية تصدّت للمانوية لأن المانوية وإن كانت تُمجد المسيح فإنها تعدّه إنساناً وعبداً لله وتتفي كونه المخلص والإله كما يعتقد أغلب النصارى، ولذلك هاجمهم افراهاط الحكيم في عام ٣٤٦ ميلادية ومنذ ذلك التاريخ صار النصارى ينعنون أتباع ماني بالزندقة^(١١٥)، لكن الجاحظ يقول عن النصارى: ((وأنت إذا سمعت كلامهم في العفو والصفح، وذكرهم للسياحة، ووزرايتهم على كل من أكل اللحم، وورغبتهم في أكل الحبوب، وترك الحيوان، وتزهيدهم في النكاح، وتركهم لطلب الولد، ومديحهم للجائليق والمطران والأسقف والرهبان بترك النكاح وطلب النسل، وتعظيمهم الرؤساء، علمت أن بين دينهم وبين الزندقة نسباً، وأنهم يحنون إلى ذلك المذهب))^(١١٦)، وفي حقيقة الأمر أن المانوية هي التي أخذت هذه التعاليم من المسيحية التي سبقتها بقرون^(١١٧)، ولكن الجاحظ لاتعنيه الحقيقة التاريخية بقدر ما يعنيه ربط المظاهر مع سياق الهدف الذي يقوم عليه نصّه، ومنهجة المعطيات لإنتاج أنموذج يتمثل تبرير المدخل الموجّه لنسقه بتبني القول به كوجهة حتمية وقولبته لخدمة المضمون المنتقى.

وقد انتظم كتاب الجاحظ (الرد على النصارى)، مع ماله من خصوصية ذات سياق سياسي، مع كتب كثيرة في الرد على النصارى، وليس معنى ذلك أن هؤلاء قد هاجموا الإسلام بالضرورة فانبرى لهم المسلمون للردّ عليهم، بل هو فن كلامي عبر عن خصائص الفكر في الحضارة العربية الإسلامية، وقد كتبت أكثر الردود في العراق في القرنين الثالث والرابع الهجريين، وكان للمعتزلة نصيب الأسد فيها^(١١٨).

خاتمة:

تجلّت المركزية الدينية في النظرة النابذة للآخر الذمي _ وغير الذمي _ في بعض مرويات التراث العربي عبر تصورات أخذت أبعادها من سياقات ثقافية عديدة، على الرغم من الدعوة القرآنية للحوار معه وهدايته، فالإسلام دعوة مُرسلة للعالم أجمع، قال تعالى: [وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ]^(١١٩)، وجوهر هذه الدعوة الرحمة للعالمين كلهم بلا استثناء، قال تعالى: [وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ]^(١٢٠)، ولكن علوم الدين والمرويات الجغرافية والتاريخية والأدبية وتمركزاتها

الهوية الدينية في تراث الجاحظ - اليهود والنصارى (دراسة في ضوء النقد الثقافي)

المنطوية على الأخذ بآيات نزلت في ظروف خاصة ولفئات محددة من أهل الكتاب - وإن كانت أكثرية - أخذت سياقاً ضاعطاً على النظرة الجمعية والمخيل الذهني للمسلمين، تظهت فيها صورة أتباع الأديان الأخرى مشوبة بالدونية، وقد ساهمت مرويات الجاحظ الذي كان من أوائل من تحدت عنهم في ترسيخ سياقات الازدراء، وتثبيتها، كمرتكز وإطار مرجعي سردي أصيل يُشير إلى هوية الآخر الديني، وتوجيه الأذهان والأخيلة لصورة مشوهة عنه وعن آرائه، عبر خلق تصورات مليئة بالتحقير والنفي الذي تبنى فكراً عقياً من شأنه توليد مشاعر عدا وحقْد مُضاد من الآخر المنتهكة صورته بتكرار، وهذا خواء لا يؤدي إلى حته لاعتناق وجهة نظر الطرف الطارد المزدرى، وكان من المفروض أن يسعى لاستقطابه إلى الدين القويم عبر منهج حيادي موضوعي يحترم إنسانيته بعيد عن التعالي والتسقيط الخُلقي والخُلقي للارتقاء معاً، بدلاً من التمييز السلبي الذي صار يعاني منه الإسلام والمسلمون في عصرنا الراهن في البلاد الغربية^(١٢١).

الهوامش:

- (١) تجب الجزية في آخر الحول أو في أوله، ولا تُؤخذ من صبي ولا امرأة ولا مجنون ولا جزية على فقير عاجز عن أدائها ولا على شيخ فان أو زمن ولا أعمى ولا مريض لأيرجى بروه وإن كانوا موسرين، وأقل ما يُؤخذ في الجزية دينار وأكثره ما وقع عليه التراضي، ينظر: أحكام أهل الذمة، شمس الدين أبو عبدالله محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية، حقه وعلق عليه، أبو براء يوسف بن أحمد البكري وأبو أحمد شاکر بن توفيق العازوري، ج ١، ص ١٢٣ - ١٦١ .
- (٢) أهل الكتاب في المجتمع الإسلامي أضواء على الأوضاع الإجتماعية والقانونية، حسن الزين، ص ٨٢ .
- (٣) ينظر: معاملة غير المسلمين في الإسلام، المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية، ص ١٨٠ - ١٨٢، (بحث الدكتور علي الصوا) .
- (٤) الفكر الإسلامي في الرد على النصارى إلى نهاية القرن الرابع / العاشر، عبدالمجيد الشرفي، ص ١٩ .
- (٥) رسائل الجاحظ، تحقيق وشرح، عبدالسلام هارون، ج ٣، ص ٣٢٠، وينظر: ج ٤، ص ١٨٢ .
- (٦) ذكره ياقوت في معجم الأديباء، ج ١٦، ص ١٠٨ .
- (٧) القبط: كلمة يونانية الأصل تُطلق على سكان مصر قديماً .
- (٨) بلاد كنعان هي التخوم الواقعة في الجنوب من سورية، ولا يعرف التاريخ سكاناً في فلسطين قبل الكنعانيين، ولم يعرف حتى الآن زمن استيطانهم فيها، ولم تعثر المكتشفات العلمية حتى اليوم إلى ما يشير على وجود أحد من البشر قبلهم هناك، اليهود عبر التاريخ، سليمان ناجي، ص ٤٥، ٤٦ .
- (٩) البيان والتبيين، أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، تحقيق وشرح، عبدالسلام هارون، ج ٣، ص ١٩٦ .

الهوية الدينية في تراث الجاحظ - اليهود والنصارى (دراسة في ضوء النقد الثقافي)

- (١٠) موسوعة تاريخ الأديان، تحرير، فراس السواح، المترجمون، عبدالرزاق العلي، محمود منقذ الهاشمي، مساهمة: فراس السواح، ج٥، ص ١٠١، ١٨٥، (اليهودية، تأليف: John B. Noos) .
- (١١) الحبر: رئيس الكهنة عند اليهود، أما الحاخام فهو المعلم الروحي لهم .
- (١٢) ترجمة متن التلمود (المشنا)، ترجمة وتعليق، د. مصطفى عبدالمعبود منصور، ج١، ص ٩-١١، (مقدمة المترجم) .
- (١٣) رسائل الجاحظ، ج٣، ص ٣١٦ .
- (١٤) ترجمة متن التلمود (المشنا)، ج٦، ص ١١، (مقدمة المترجم) .
- (١٥) ينظر: كتاب جمل من أنساب الأشراف، أحمد بن يحيى بن جابر البلاذري، حققه وقدم له، د. سهيل زكار، د. رياض زركلي، ج٢، ص ٧٨ .
- (١٦) كتاب أسباب النزول، أبو الحسن علي بن أحمد الواحدي النيسابوري، اعتنى به، وليد الزكري، ص ٢١٨ .
- (١٧) سورة الحجرات، ١١ .
- (١٨) كتاب جمل من أنساب الأشراف، ج٢، ص ٩١ .
- (١٩) رسائل الجاحظ، ج٣، ص ٢٧٢ .
- (٢٠) الأسر: شدة الخلق .
- (٢١) رسائل الجاحظ، ج٣، ص ٣١٦ .
- (٢٢) ينظر: الكتاب المقدس وهو أسفار العهدين القديم والجديد مترجمة من اللغات الأصلية، ترجمة، فاندايك والبستاني، العهد القديم، سفر الخروج، ٣٤: ١٥، ١٦، ص ١٤١، سفر التثنية، ٧: ٢-٤، ص ٢٨٢، سفر يشوع، ٢٣: ١٢، ١٣، ص ٣٦٤، سفر تَحْمِيَا، ١٣: ٢٣-٢٨، ص ٧٤٥، ٧٤٦ .
- (٢٣) للدلالة التاريخية والعلمية، ينظر: اليهود انثروبولوجيا، د. جمال حمدان، ص ١٥٤ - ١٨١ .
- (٢٤) رسائل الجاحظ، ج٣، ص ٢٧١ .
- (٢٥) ينظر: أهل الذمة في الإسلام حتى نهاية العصر الأموي، محمد حسب الله علوان القرشي، (رسالة ماجستير، كلية التربية، جامعة واسط، ٢٠٠٨ م)، ص ٥٧ - ٦٠ .
- (٢٦) ينظر: اليهود في العالم العربي، دراسة تاريخية في قضايا الهوية - الاندماج - القدس، د. زبيدة محمد عطا، ج١، ص ١٧٢ - ١٨٢ .
- (٢٧) أهل الذمة في العصر العباسي دراسة في أوضاعهم الاجتماعية والاقتصادية، وسن حسين محييد الغريبي، (رسالة ماجستير، كلية التربية بنات، جامعة بغداد، ٢٠٠٢ م)، ص ٢٢٢ .
- (٢٨) التربية عبر التاريخ من العصور القديمة حتى أوائل القرن العشرين، د. عبدالله عبدالدائم، ص ٢٩ .

الهوية الدينية في تراث الجاحظ - اليهود والنصارى (دراسة في ضوء النقد الثقافي)

(٢٩) وكان السموأل قد بذل ابنه قتيلاً حفاظاً على أمانته، بعد رفضه تسليم سلاح قد استودعه عنده الشاعر أمرؤ القيس إلى الحارث الغساني الأكبر، وقد هدده الأخير بقتل ولده الذي أخذه أسيراً مقابل السلاح، ولم يستجب السموأل له، ينظر في قصته: الشعر والشعراء، أبو محمد عبدالله بن مسلم ابن قتيبة، راجعه وأعد فهرسه، محمد عبدالمنعم العريان، ص ٦١، ١٦٢ .

(٣٠) ينظر: البيان والتبيين، ج ٣، ص ١٢٢، وينظر: ج ٤، ص ٤٢ .

(٣١) ينظر: نفسه، ج ١، ص ١٥٦ .

(٣٢) أديان العالم، حبيب سعيد، ص ١٧٦ .

(٣٣) رسائل الجاحظ، ج ٣، ص ٣١٤ .

(٣٤) نفسه، ج ٣، ص ٣٣٧ .

(٣٥) الهُلاس: هزال بما يشبه السلّ .

(٣٦) الموتان: الموت .

(٣٧) رسائل الجاحظ، ج ٣، ص ٢٧٢، ٢٧٣ .

(٣٨) ينظر على سبيل المثال: سورة الأعراف، ١٥٦، سورة طه، ٧٣ - ٧٦، سورة غافر، ٤١ - ٤٣ .

(٣٩) ينظر على سبيل المثال: سفر التثنية، ٣٢: ٣٥، ص ٣٢٣، سفر إشعيا، ١٣: ٦ - ٤، ص ٩٦٨،

سفر صَفَقِيَّا، ١: ١٤ - ١٨، ص ١٢٧٦، ١٢٧٧، سفر مَلَاخِي، ٤: ١، ص ١٣٠٠ .

(٤٠) ينظر على سبيل المثال: ترجمة متن التلمود (المشنا)، ج ٤، ص ٣١٨ .

(٤١) الحيوان، أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، تحقيق وشرح، عبدالسلام هارون، ج ١، ص ١٦٠، ١٦١ .

(٤٢) في يوم السبت يقطع اليهود عن العمل ويتفرغون للعبادة فقط، وقد ورد القول بالنهاي عن العمل مطلقاً به

في العهد القديم، وتردد ذكر السبت في مواضع متعددة منه، وصنف أنواع نشاطات معينة من العمل إذا

مارسها اليهودي يكون قد وقع تحت عقوبات إثم تدنيس السبت، أما قوانين التلمود فقد جاءت صارمة جداً

تجاه الأعمال الرئيسة التي يُدان بسببها اليهودي بانتهاك السبت، وقد استفاض في تفصيل حدود تلك

الأعمال وتداعياتها ونواهيها وأضاف إليها وبالغ جداً لحدّ الإلزام بذبيحة الخطيئة على من يقصف أظافره

بأظافره أو بأسنانه أو من ينتف بيده أو بأسنانه شعره أو شاربه أو لحيته أو من تجدل شعرها أو تكحل

عينيها، ووضعت عقوبة الرجم حتى الموت حدّاً لمن يُدنس يوم السبت عمداً بالقطع، ينظر على سبيل

المثال: سفر الخروج، ١٦: ٢٢ - ٣٠، ص ١١٢، ٢٠: ٨ - ١٠، ص ١١٧، سفر العدد، ٥: ٣٢ -

٣٦، ص ٢٣١، ٢٣٢، سفر المُلوك الثاني، ٤: ٢٣، ص ٥٦٦، سفر نحما، ١٠: ٣١، ٣٣،

ص ٧٣٩، سفر إشعيا، ١: ١٣، ص ٩٥٤، سفر حزقيال، ٤٦: ٣، ٤، ص ١١٩٩، سفر

هُوشع، ٢: ١١، ص ١٢٣٠، وينظر في قوانين يوم السبت وأحكامه: ترجمة متن التلمود (المشنا)،

الهوية الدينية في تراث الجاحظ - اليهود والنصارى (دراسة في ضوء النقد الثقافي)

- ج ٢، ص ٣١ - ١٢٩، وفي تفصيل شريعة السبت وتدابيرها في المجتمع اليهودي ينظر: الحياة اليهودية بحسب التلمود، إعداد القمص روفائيل البرموسي، ص ٨٩ - ١١١ .
- (٤٣) الكتاب المقدس، العهد القديم، ٣١: ١٦، ١٧، ص ١٣٦ .
- (٤٤) الحيوان، ج ٧، ص ١٥ .
- (٤٥) وللختان في اليهودية طقوس ومراسيم خاصة لإقامته ورد تفصيلها في التلمود الذي تشدد في عدم تأخيرها عن اليوم الثامن إلا لأسباب تتعلق بمرض الطفل حصراً .
- (٤٦) الكتاب المقدس، العهد القديم، ١٧: ٩ - ١٤، ص ٢٣، ٢٤ .
- (٤٧) ينظر: تخريج الأحاديث والآثار الواقعة في تفسير الكشاف للزمخشري، جمال الدين أبو محمد عبدالله بن يوسف بن محمد الزَيْلَعِي، اعتنى به، سلطان بن فهد الطَّبَّيشِي، ج ١، ص ١٤٥، حديث رقم ٤٢٨ .
- (٤٨) البيان والتبيين، ج ٢، ص ٢٣ .
- (٤٩) الجزور: ما يصلح لأن يُذبح من الإبل .
- (٥٠) الحيوان، ج ٦، ص ٣٠٨، ٣٠٩، ينظر: ج ٦، ص ٤٧ .
- (٥١) ينظر: معجم تفسير الأحلام، محمد بن سيرين، عبدالغني النابلسي، ص ١١٤٧، ١١٤٨، ١٢١٥، ١٢١٦ .
- (٥٢) الأمثال العربية والعصر الجاهلي دراسة تحليلية، د. محمد توفيق أبو علي، ص ٢٢٧، ينظر: ص ٢٢٨، ٢٢٩ .
- (٥٣) الملة والنحلة في اليهودية - المسيحية - الإسلام، د. حمدي عبدالعال، ص ٨٠ .
- (٥٤) يسوع المسيح في العهدين القديم والجديد دراسة تاريخية مقارنة، ماجدة حسو منصور، ص ٦٩، ٧٠ .
- (٥٥) موسوعة تاريخ الأديان، ج ٥، ص ٢٠٩، (المسيحية، تأليف: John B. Noos) .
- (٥٦) رسائل الجاحظ، ج ٣، ص ٣٢٨ .
- (٥٧) موقف اليهود والنصارى من المسيح عليه السلام وإبطال شبهاتهم حوله، د. سارة بنت حامد بن محمد العبادي، ص ٢١١ - ٢١٧، ٤٧٠ .
- (٥٨) ينظر: المسلمون والنصارى التعامل من منظور إسلامي، د. عبدالرحمن عُطْبَة، ص ٥٣ - ٦٨ .
- (٥٩) بينما خصَّ الجاحظ اليهود باعتقادهم بالجبر جميعاً بلا استثناء دون ذكر النصارى، ينظر: رسائل الجاحظ: ج ٣، ص ٣٤٥ .
- (٦٠) نفسه، ج ٣، ص ٣٥١ .
- (٦١) اليهود والنصارى، وسُمُوا أهل الكتاب وخاطبهم القرآن بذلك لامتلاكهم كتاب مُحَقَّق .

الهوية الدينية في تراث الجاحظ - اليهود والنصارى (دراسة في ضوء النقد الثقافي)

- (٦٢) الحيوان، ج٤، ص ٦١ .
- (٦٣) السدنة: خدام وحراس المعابد .
- (٦٤) الحيوان، ج٤، ص ٢٩٣ .
- (٦٥) الجاثليق: ويسمى أيضا البطريرك، وهو رئيس ملتهم ومقدم الأساقفة فيهم، وقد بين الجاحظ في كتابه (البيان والتبيين) أن من شروط الجاثليق الواجبة لاختياره لهذه المرتبة في المسيحية: امتداد القامة وعظم اللحية والزهد في الرئاسة، ويقول الجاحظ بأنه لا بد للجاثليق من قناع ومظلة وبزطلة _ والبرطلة هي القلنسوة التي تدار عليها العمامة - ومن عكاز وعصا، ينظر: ج١، ص ١٠٠، ج٣، ص ٥٩ .
- (٦٦) من هنا رأس الجالوت: أمير الطائفة اليهودية والممثل السياسي والمدني لهم، ولا بد لمن يتولى هذه الرتبة فيهم أن يكون من نسل داود عليه السلام .
- (٦٧) الحيوان، ج٤، ص ١٦ .
- (٦٨) ينظر: موسوعة تاريخ الأديان، ج٥، ص ١٨٩ .
- (٦٩) رسائل الجاحظ، ج٣، ص ٣٢٤ .
- (٧٠) النيرنج: من أنواع السحر .
- (٧١) مجموع رسائل الجاحظ، حقق نصوصه وعلق عليها، د. محمد طه الحاجري، ص ٥١ .
- (٧٢) ينظر في تفصيل أقوال واعتقادات اليهود في عيسى ووالدته: موقف اليهود والنصارى من المسيح عليه السلام وإبطال شبهاتهم حوله، ص ٢٥-١٣٤، وينظر في تعظيمه وتعظيم والدته عند النصارى: ص ١٣٥-٢٢٦ .
- (٧٣) النساطرة والملكانية واليعقوبية: أكبر فرق النصارى قديما .
- (٧٤) رسائل الجاحظ، ج٣، ص ٣٢٤ .
- (٧٥) نفسه، ج٣، ص ٣٠٨ .
- (٧٦) وللجاحظ رسالة أخرى في الرد على النصارى بعنوان (الرسالة العسلية)، وهي من مصادر الجاحظ التي ضاعت من تراثه، ينظر: المختار في الرد على النصارى مع دراسة تحليلية تقويمية لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، تحقيق ودراسة، د. محمد عبدالله الشرقاوي، ص ١٢ .
- (٧٧) رسائل الجاحظ، ج٣، ص ٣٤١ .
- (٧٨) المائة، ٨٢ .
- (٧٩) الشَّعَاب: الذي يقوم بإصلاح الصدع أو الشق .
- (٨٠) رسائل الجاحظ، ج٣، ص ٣٠٩ - ٣١٧ .
- (٨١) أمر المتوكل بإلزام أهل النمة بارتداء ملابس خاصة لا يحيدون عنها هم ونسائهم ومماليكهم - وهذا الإلزام يسمى الغيار وقد أحدثه عمر بن الخطاب في عهده ابتداء -، ونهاهم عن ركوب الخيل والبرادين

الهوية الدينية في تراث الجاحظ - اليهود والنصارى (دراسة في ضوء النقد الثقافي)

والاقتصار على ركوب البغال والحمير، كما أمر بعدم الاستعانة بهم في أعمال الدواوين، ونهى أن يتعلم أولادهم في كتابات المسلمين وأن لا يعلمهم مسلم، وبأخذ العشر من منازلهم، كما ألزمهم أن يضعوا على أبواب دورهم صور شياطين من خشب مسمورة، وبتسوية قبورهم مع الأرض، ينظر: تاريخ اليعقوبي، أحمد بن إسحاق بن جعفر بن وهب ابن واضح اليعقوبي البغدادي، علق عليه ووضع حواشيه، خليل المنصور، ج ٢، ص ٣٤٢، تاريخ الطبري تاريخ الرسل والملوك، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، تحقيق، محمد أبو الفضل إبراهيم، ج ٩، ص ١٧١ - ١٧٤، ١٩٦ .

(٨٢) معجم الأدباء، ج ١٦، ص ٩٩، ١٠٠ .

(٨٣) أحوال النصارى في خلافة بني العباس، د. جان مورييس فييه، نقله إلى العربية، حسني زينه، ص ١٤٦، ١٤٧ .

(٨٤) خطاب الأخلاق والهوية في رسائل الجاحظ مقارنة بلاغية حاجية، د. محمد مشبال، ص ٣٠٩ .

(٨٥) رسائل الجاحظ، ج ٣، ص ٣٤٩، ٣٥٠ .

(٨٦) ينظر: تأويل مختلف الحديث، أبو محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة، تحقيق، محمد محيي الدين الأصغر، ص ١١٢ .

(٨٧) المطران: رتبة دينية فوق الأسقف ودون البطريرك، والمطران هو القاضي الذي يفصل في الخصومات الشخصية .

(٨٨) الأسقف: رئيس الكهنة ومتولي إدارة الأبرشية، ورتبته تقع بين المطران والقسيس .

(٨٩) الراهب: متعبد النصارى ممن تخلى عن الزواج وملذات الدنيا واعتزل الناس إلى الأديرة مكرسا نفسه للعبادة وأعمال البر، وقد انفرد النصارى بالرهينة من بين الأديان السماوية معتبرين ترك الزواج فضيلة تقرب من الله، والرهينة أمر ابتدعه النصارى وليس له من التشريع الإلهي إذن مطلقا، وقد ظهرت في أواخر القرن الثالث الميلادي وتكرست بقوة منذ القرن الرابع، وكان أول من حثَّ عليها بولس الرسول، موسوعة الزواج والعلاقة الزوجية في الإسلام والشرائع الأخرى المقارنة، د. ملكة يوسف زرار، ج ١، ص ٧٧، ٧٨، وينظر في سبب نشوء الرهينة وتاريخها في الديانة النصرانية: موسوعة تاريخ الأديان، ج ٥، ص ٢٧٩ - ٢٨٢، الزواج في الشرائع السماوية والوضع، هند المعدلي، ص ١١٥ - ١١٨ .

(٩٠) القس: مرتبة دينية تتوسط بين الأسقف والشماس، والقس هو القارئ الذي يقرأ الإنجيل والمزامير، ويصلي بالجماعة المسيحية ويفتي في أمورهم الدينية .

(٩١) كان التعدد في الزواج مقرا في الديانة اليهودية ولم تنسخه الديانة المسيحية، إذ لم يرد أي ذكر لهذا الأمر في الأناجيل المعتمدة، إنما هو أمر أقره رجال الدين، فشاع بين النصارى على اختلاف طوائفهم القول بتحريم التعدد دون نص ناسخ من العهد الجديد وقالوا أن الجمع بين زوجتين زنا ظاهر، في الوقت الذي أقرت المسيحية في بدايتها ما أقرته ديانة موسى في التعدد، ولكن الأمر انتهى من بعد عيسى بقرون

الهوية الدينية في تراث الجاحظ - اليهود والنصارى (دراسة في ضوء النقد الثقافي)

بالإقرار رسمياً بإفرادية الزوجة ومنع التعدد أو التسري، ومع ذلك ظل قائماً في بعض الأمم المسيحية مثل الحبشة، موسوعة الزواج والعلاقة الزوجية في الإسلام والشرائع الأخرى المقارنة، ج ١، ص ٩٧، المرأة في اليهودية والمسيحية والإسلام، إعداد، زكي علي السيد أبو غضة، ص ٢٨٩، ٢٩٢.

(٩٢) رسائل الجاحظ، ج ٣، ص ٣٢٢.

(٩٣) ينظر: أهل الذمة في العصر العباسي دراسة في أوضاعهم الاجتماعية والاقتصادية، ص ٢٨، ١٦٦، ١٨٤ - ١٨٩، ٢٠٥ - ٢١٢، أهل الذمة في الإسلام حتى نهاية العصر الأموي، ص ٦٥ - ٦٧.

(٩٤) البزيون: السندس، أو رقيق الديباج.

(٩٥) رسائل الجاحظ، ج ٣، ص ٣١٤.

(٩٦) نفسه، ج ٣، ص ٣٢٢.

(٩٧) الرق ماضيه وحاضره، عبدالسلام الترماني، ص ٩٣.

(٩٨) الحيوان، ج ١، ص ١٠٧.

(٩٩) رسائل الجاحظ، ج ٣، ص ٢٥٢.

(١٠٠) نفسه، ج ٤، ص ١٢٦.

(١٠١) الأقف: غير المختون، وكان الختان فريضة يؤديها النصارى الأوائل، وكان عيسى عليه السلام قد اختتن في اليوم الثامن كأوامر التوراة الذي أرسل ليكملها لا لينقضها كلياً، وقد رُفِعَ عيسى والختان موجود وجميع النصارى يختنون على شريعة موسى، إنما تم إغائه من بعده بقرون من قبل بولس الرسول، وقد التزم بهذا الإلغاء طائفة النساطرة والملكانية عدا اليعاقبة ونصارى الحيرة فهم يختنون، بل شمل الختان حتى نسائهم، المرأة في اليهودية والمسيحية والإسلام: ص ٢٣٤ - ٢٣٨، أهل الذمة في العصر العباسي دراسة في أوضاعهم الاجتماعية والاقتصادية، ص ٩٩.

(١٠٢) رسائل الجاحظ، ج ٣، ص ٣٢٣.

(١٠٣) الحيوان، ج ٤، ص ٩٦.

(١٠٤) نفسه، ج ٦، ص ١٢٨.

(١٠٥) كنيسة القمامة: هو الإسم العربي الأصلي لكنيسة القيامة.

(١٠٦) الحيوان، ج ٤، ص ٢٩٦، ويقول الجاحظ في موضع لاحق من الكتاب: ((وقد تعرف مافي عجائز

النصارى وأغمارهم من الإفتتان بمصاييح كنيسة قمامة))، ج ٦، ص ١٢٨.

(١٠٧) نفسه، ج ١، ص ١٦١.

(١٠٨) بينما ذكر الجاحظ اشمال كتبهم على حدود دنيوية منها الحبس والضرب، في كتابه الحيوان مناقضا بذلك

كلامه السابق، ينظر: ج ٤، ص ١٦.

الهوية الدينية في تراث الجاحظ - اليهود والنصارى (دراسة في ضوء النقد الثقافي)

- (١٠٩) رسائل الجاحظ، ج ٣، ص ٣٢٣ .
- (١١٠) ينظر: الكتاب المقدس، العهد الجديد، إنجيل المسيح حسب البشير مَتَّى، ٢٥: ٤١، ص ٤٨، رؤيا يوحنا اللاهوتي، ١٤: ١١، ص ٤٢٠ .
- (١١١) يوم القيامة بين الإسلام والمسيحية واليهودية، د. فرج الله عبد الباري، ص ٣١٦، وينظر: ص ٢١١ - ٢١٦، ٣١٦ - ٣١٨ .
- (١١٢) رسائل الجاحظ، ج ٣، ص ٣١٥، ٣١٦ .
- (١١٣) ينظر: من تاريخ الإلحاد في الإسلام، د. عبدالرحمن بدوي، ص ٤٤ .
- (١١٤) الملل والنحل، أبو الفتح محمد عبدالكريم ابن أبي بكر أحمد الشهرستاني، تحقيق، عبدالعزيز محمد الوكيل، ج ٢، ص ٤٩ .
- (١١٥) الزندقة والزنادقة تاريخ وفكر، محمد عبدالحميد الحمد، ص ٢٨، ٣٣ .
- (١١٦) رسائل الجاحظ، ج ٣، ص ٣٢١ .
- (١١٧) ينظر: الزندقة والزنادقة تاريخ وفكر، ص ٢٨، ٤٠ .
- (١١٨) ينظر: الفكر الإسلامي في الرد على النصارى إلى نهاية القرن الرابع / العاشر، ص ٢٢، ٢٠٨، ٢٠٩ .
- (١١٩) سبأ، ٢٨ .
- (١٢٠) الانبياء، ١٠٧ .
- (١٢١) ينظر في القول بنظرة الغرب للدين الإسلامي: العنصرية وصدام الحضارات، د. أسامة نبيل، صبري سعيد، ص ٤٠، (بحث د. أسامة نبيل) .

المصادر:

- القرآن الكريم .
- أحكام أهل الذمة، شمس الدين أبو عبدالله محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية، حققه وعلّق عليه، أبو براء يوسف بن أحمد البكري، أبو أحمد شاکر بن توفيق العاروري، رمادي للنشر، المملكة العربية السعودية، ط ١، ١٩٩٧ .
- أحوال النصارى في خلافة بني العباس، د. جان مورييس فييه، نقله إلى العربية، حُسنِي زينه، دار المشرق، بيروت - لبنان، ط ١، ١٩٩٠ .
- أديان العالم، حبيب سعيد، دار التأليف والنشر للكنيسة الأسقفية، القاهرة، د. ت .
- الأمثال العربية والعصر الجاهلي دراسة تحليلية، د. محمد توفيق أبو علي، دار النفائس، بيروت - لبنان، ط ١، ١٩٨٨ .

الهوية الدينية في تراث الجاحظ - اليهود والنصارى (دراسة في ضوء النقد الثقافي)

- أهل الذمة في الإسلام حتى نهاية العصر الأموي، محمد حسب الله علوان القرشي، رسالة ماجستير، كلية التربية، جامعة واسط، ٢٠٠٨ .
- أهل الذمة في العصر العباسي دراسة في أوضاعهم الاجتماعية والإقتصادية، وسن حسين محييد الغريبي، رسالة ماجستير، كلية التربية بنات، جامعة بغداد، ٢٠٠٢ .
- أهل الكتاب في المجتمع الإسلامي أضواء على الأوضاع الاجتماعية والقانونية، حسن الزين، بيروت - لبنان، ط١، ١٩٨٢ .
- البيان والتبيين، أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، تحقيق وشرح، عبدالسلام هارون، مكتبة ابن سينا، القاهرة - مصر، ط١، ٢٠١٠ .
- تاريخ الطبري تاريخ الرسل والملوك، أبو جعفر بن جرير الطبري، تحقيق، محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف بمصر، ط٢، ٢٠٠٤ .
- تاريخ اليعقوبي، أحمد بن إسحاق بن جعفر بن وهب ابن واضح اليعقوبي البغدادي، علق عليه ووضع حواشيه، خليل المنصور، دار الزهراء، إيران - قم، ط١، ١٢٩٤ق .
- تأويل مختلف الحديث، أبو محمد عبدالله بن مسلم ابن قتيبة، تحقيق، محمد محيي الدين الأصغر، المكتب الإسلامي، بيروت، مؤسسة الإشراف، قطر - الدوحة، ط٢، ١٩٩٩ .
- تخريج الأحاديث والآثار الواقعة في تفسير الكشاف للزمخشري، جمال الدين أبو محمد عبدالله بن يوسف بن محمد الزيلعي، اعتنى به، سلطان بن فهد الطبيشي، إصدار وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، المملكة العربية السعودية، ط١، ٢٠٠٣ .
- التربية عبر التاريخ من العصور القديمة حتى أوائل القرن العشرين، د. عبدالله عبدالدائم، ط٤، ١٩٨١ .
- ترجمة متن التلمود (المشنا)، ترجمة وتعليق، د. مصطفى عبدالمعبود سيد منصور، دار طيبة - الجيزة، ط١، ٢٠٠٨ .
- الحياة اليهودية بحسب التلمود، مراجعة، نيافة الأنبا ايسوذورس، إعداد: القمص روفائيل البرموسي، دار نوبار، دير السيدة العذراء - برموس، ط١، ٢٠٠٣ .
- الحيوان، أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، تحقيق وشرح، عبدالسلام هارون، مكتبة ابن سينا، القاهرة، ط١، ٢٠١٣ .
- رسائل الجاحظ، تحقيق وشرح، عبدالسلام هارون، مكتبة الخانجي، مصر، د.ت .
- خطاب الأخلاق والهوية في رسائل الجاحظ مقارنة بلاغية حجاجية، د. محمد مشبال، دار كنوز المعرفة، عمان، ط١، ٢٠١٥ .
- الرق ماضيه وحاضره، عبدالسلام الترماني، عالم المعرفة، سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، نوفمبر، ١٩٧٩ .

الهوية الدينية في تراث الجاحظ - اليهود والنصارى (دراسة في ضوء النقد الثقافي)

- الزندقة والزنادقة تاريخ وفكر، محمد عبد الحميد الحمد، دار الطليعة الجديدة، سوريا - دمشق، ط ١، ١٩٩٩.
- الزواج في الشرائع السماوية والوضعية، هند المعدللي، دار قتيبية، دمشق - سوريا، بيروت - لبنان، ط ١، ٢٠٠٢.
- الشعر والشعراء، أبو محمد عبدالله بن مسلم ابن قتيبة، راجعه وأعد فهرسه، محمد عبد المنعم العريان، دار إحياء العلوم، بيروت - لبنان، ط ٣، ١٩٨٧.
- الفكر الإسلامي في الرد على النصارى إلى نهاية القرن الرابع / العاشر، عبد المجيد الشرفي، دار المدار الإسلامي، بيروت - لبنان، ط ٢، ٢٠٠٧.
- كتاب أسباب النزول، أبو الحسن علي بن أحمد الواحدي النيسابوري، اعتنى به، وليد الزكري، المكتبة العصرية، لبنان، ٢٠١٠.
- كتاب جمل من أنساب الأشراف، أحمد بن يحيى بن جابر البلاذري، حققه وقدم له، د. سهيل زكار، د. رياض زركلي، دار الفكر، بيروت - لبنان، ط ١، ١٩٩٦.
- الكتاب المقدس، وهو أسفار العهدين القديم والجديد مترجمة من اللغات الأصلية، ترجمة، فاندريك والبستاني، نداء الرجاء، شتوتغارت - ألمانيا، ١٩٩١.
- مجموع رسائل الجاحظ، حقق نصوصه وقدم لها وعلق عليها، د. محمد طه الحاجري، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨٣.
- المختار في الرد على النصارى مع دراسة تحليلية تقويمية لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، تحقيق ودراسة، د. محمد عبدالله الشرفاوي، دار الجيل، بيروت، ط ١، ١٩٩١.
- المرأة في اليهودية والمسيحية والإسلام، إعداد، زكي علي السيد أبو غضة، دار الوفاء، مصر، ط ١، ٢٠٠٣.
- المسلمون والنصارى التعامل من منظور إسلامي، د. عبدالرحمن عطبة، دار الأوزاعي، لبنان - بيروت، ط ١، ٢٠٠٠.
- معاملة غير المسلمين في الإسلام، الجزء الأول، المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية، مؤسسة آل البيت، عمان، ١٩٨٩.
- معجم الأدباء، لياقوت، راجعته وزارة المعارف العمومية، دار المأمون، د. ت.
- معجم تفسير الأحلام، محمد بن سيرين، عبدالغني النابلسي، رتبته معجمياً، باسل البريدي، اليمامة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط ١، ٢٠٠٨.
- الملة والنحلة في اليهودية - المسيحية - الإسلام، د. حمدي عبدالعال، دار القلم، الكويت، ط ١، ١٩٨٩.

الهوية الدينية في تراث الجاحظ - اليهود والنصارى (أموذجا دراسة في ضوء النقد الثقافي)

- الملل والنحل، أبو الفتح محمد عبدالكريم ابن أبي بكر أحمد الشهرستاني، تحقيق، عبدالعزيز محمد الوكيل، مؤسسة الحلبي، دار الإتحاد العربي، القاهرة، ١٩٦٨ .
- من تاريخ الإلحاد في الإسلام، تأليف وترجمة، د. عبدالرحمن بدوي، سينا للنشر، القاهرة، جمهورية مصر العربية، ط٢، ١٩٩٣ .
- موسوعة تاريخ الأديان تحرير، فراس السوّاح، المترجمون، عبدالرزاق العلي، محمود منفذ الهاشمي، مساهمة، فراس السوّاح، دار علاء الدين، دمشق _ سورية، ط١، ٢٠٠٩ .
- موسوعة الزواج والعلاقة الزوجية في الإسلام والشرائع الأخرى المقارنة، د. ملكة زرار، ج١، الناشر: الفتح للإعلام العربي، القاهرة، ط١، ٢٠٠٠ .
- موقف اليهود والنصارى من المسيح عليه السلام وإبطال شبهاتهم حوله، د. سارة بنت حامد بن محمد العبادي، مكتبة الرشد، ناشرون، المملكة العربية السعودية - الرياض، ط١، ٢٠٠٥ .
- يسوع المسيح في العهدين القديم والجديد دراسة تاريخية مقارنة، ماجدة حسو منصور، الناشر: بيت الحكمة، العراق - بغداد، ط١، ٢٠١١ .
- اليهود انثروبولوجيا، د. جمال حمدان، كتاب الهلال، العدد ٥٤٢، فبراير، ١٩٩٦ .
- اليهود عبر التاريخ، سليمان ناجي، قتيبة للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق _ سوريا، بيروت _ لبنان، ط١، ٢٠٠٧ .
- اليهود في العالم العربي دراسة تاريخية في قضايا الهوية _ الإندماج _ القدس، د. زبيدة محمد عطا، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، ط١، ٢٠٠٣ .
- يوم القيامة بين الإسلام والمسيحية واليهودية، د. فرج الله عبدالباري، دار الآفاق العربية، د.ت .